دار النشر الإلكتروني
Dar Al-Nashr Al-Electrony

النزهي

تأليف

علي يوسف علي

كمال رستم من إحدى قاعات محكمة النقض بمبنى القضاء العالي بعد أن أنهى مرافعته في القضية التي حضر بشأنها، وبينما هو يجدّ مسرعا في اتجاه أحد أبواب الخروج جاءه صـوت يهتف باسمه، فالتفت فوجد رجلا يهب من جلسته على الدكة التي كان يجلس عليها فـي بهـو المبنى ويتجه إليه.

نظر كمال للرجل الذي كان يقترب منه بسرعة كما لو كانا على علاقة قديمة، وبالفعل كان الأمر كذلك، فتوجه إليه كمال وهو يهتف غير مصدق عينيه:

أستاذ جعفر؟

أستاذ كمال!

وتعانق الصديقان القديمان، وتأبط كمال ذراع صديقه متجهين لمحل الأمريكين القريب من مبنى القضاء العالي.

وبعد أن استقر بهما المجلس وطلب الضيف مشروبه ثم تبعه المضيف، نظر كمال لـضيفه يزداد تأكدا من الانطباع السريع الذي أخذه عنه في بهو محكمة النقض.

عشر سنوات لا بد أن تفعل فعلها في كل البشر، ولكن التغير الذي لاحظـه كمـال علـى صديقه كان أكثر من مجرد تقدم في العمر، فهذا بكل تأكيد ليس جعفر "النزهي" كمـا كـانوا يطلقون عليه في فترة الشباب المبكر.

ولم يكن لفظ "النزهي" الذي اكتسبه الأستاذ جعفر مدرس الرياضيات بمدرسة الفيوم الثانوية قد أتى من فراغ، فالرجل شديد الاهتمام بكل ما يرتبط بمظاهر حياته، ملبسه، وجاهته، مسكنه ... الخ.

لم يره أحد قط غير "مسبسب" الشعر، حليق الذقن، مهندم الشارب، أنيق الملابـس، مـزين بيته بكل ما يوحي بالمرح والانشراح من لوحات زيتية كاسية وعارية، وتحف وفازات بعضها نادر لدرجة أنه يصعب تصور اقتنائها لمن هو في مستواه الاجتماعي.

بل وحتى زوجته، كان لفرط ولهه بها يصر أن تبدو للناس في أبهى صورة، فكان لا يبخل عليها بالملابس الأنيقة، والروائح الجذابة، ومعدات المكياج المبهجـة، ويطلـق عليهـا أمـام أصدقائه مداعبا: "السنيورة".

المهم أن يكون كل شيء متصل به "على سنجة عشرة" كما كان يعبر هو ذاته.

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

وكان الأستاذ جعفر الشهير بالنزهي يمثل الانفتاح على الحياة بكل المعاني، فهوي يضم بين جنبيه روحا فياضة بالفكاهة، تحمل ودا مفرطا وكرما حاتميا لكل من يرتبط به بـأي ربـاط، وتتمتع بتلقائية لا تعمل للهموم أي حساب.

كان القول المشهور عن "النزهي" *عشان تغلب الدنيا عليك أنك تضربها ستين صرمة*"،

ولكن يبدو أن الدنيا قد تمكنت منه أخيرا، واقتصت منه ولكن كل صرمة بعشرة أمثالها.

وبينما الضيف مشغول بتحلية كوب الشاي وهو يحملق فيه كما تحملق قارئة الفنجان فـي فنجانها، واصل كمال تأمله له.

من جهة المظهر كانت ملابس الصديق القديم تنبئ عن عزيز قوم ذل، مهندمة نعم، ولكـن يبدو عليها أثر السنين بشكل واضح، وهو الذي كان يرسل ملابسه كل عامين لجهـات البـر والإحسان ليستبدل بها ما هو على آخر صيحة من صيحات الأناقة.

ومن جهة الوجه فهو لا يزال محافظا على مظهره الأنيق، ولكن شابه اكتئاب قد يخفى على من لا يعرفه فيظنه مجرد جدية في الطباع، ولكن بالنسبة لمن عاشره لفترة طويلة في بدايـة حياته العملية، فالتغير يعتبر جسيما لدرجة تثير القلق.

وقطع كمال الصمت:

والله زمان يا نزهي!

البقية في حياتك!

وهتف كمال في قلق:

- في مين؟

- في صاحبك النزهي، الله يرحمه بقى.

وازداد قلق كمال بعد أن تأكدت ظنونه أن أمرا جللا حل بصديقه، واقترب منه وقال فـي حنو بالغ:

- خير يا ترى، احكي لي.

- واحكي لمين إن ما كنتش أحكيلك انت، هو أنا جاي مـن الفيـوم إلا عـشان أحكيلك؟

وعاد ليغرق في صمته، وانتظر كمال منه أن يقطعه بنفسه.

وبعد رشفة من الكوب رفع جعفر عينيه ليركزهما على عيني صديقه ورأى كمال في عيني صديقه لمعانا فسره بأنه شلال دموع يريد أن ينهمر من عينيه، ولكن الصديق تماسـك وقـال بصوت مرتجف:

- بنتي يا كمال هتضيع مني!

وصاح كمال بصوت أقرب للصراخ:

- بنتك؟

وتنهد جعفر وهو يقول:

- بنتي اللي لك الفضل في ظهورها للوجود.

وهزت العبارة وجدان كمال، فسرح برهة قصيرة ثم استجمع حضوره وقال:

- الفضل لله يا راجل، كل شيء بإيده.
- طبعا الفضل لله، ولكنه سبحانه بيسبب الأسباب، وما انساش إن إنت والدكتور مجدي كنتم الأسباب

وأطرق جعفر وعلامات التأثر بادية على وجهه، ثم رفع رأسه وسأل صديقه الذي وجده يحدق في هدف بعيد غير مرئي:

- أللا هو فين دلوقت، لسه بتشوفه؟

وانتبه كمال لعبارته وقال:

- قصدك مجدي، بشوفه طبعا بس مش كتير، أكتر المقابلات في الـشارع لأن عيادته مش بعيد عن مكتبي.

وابتسم ابتسامة عريضة وغمز بعينه وهو يقول:

- وعمري ما انسى إن هو اللي كان بيشطب على جيوبنا في جلسات البوكر في منزلكم العامر، وعشان كده حاز لقب ملك شلة الأنس.

وزفر جعفر زفرة حارة، وبعد رشفة من الكوب قال:

- الله يرحم الأيام.
- على رأيك، هو يا سيدي دلوقت فاتح عيادة أنف وإذن مـا شـاء الله عليهـا. وغير صيته اللي زي الطبل، اللهم لا حسد، في الجامعة زي المنشار، رايـح مـؤتمر وجاي من مؤتمر، وكله على ودنه على رأي المرحوم توفيق الدقن.

كان من الواضح أن كمال يريد أن يخرج صديقه من حالة الاكتئاب التي تسيطر عليه.

وضحك الضيف ضحكة لا روح فيها، ثم قال:

- عظيم، ده هيسهل علينا المهمة.
- بس انت لسة ما قلتليش إيه الموضوع، مالها بنتك كفا الله الشر؟

ودس جعفر يده في الجيب الداخلي لجاكتته، ثم أخرج محفظة منتفخة وأخرج منها صـورة قدمها له:

- شوف الملاك ده، أهي دي يا سيدي صاحبة المشكلة.

واتسعت عينا كمال على آخر ما يمكن لعيني بشر أن تتسع وهو يتأمل صورة طفلة فياضة بالبراءة، وعلى وجهها ابتسامة تجاب السعادة لمن يراها لعام كامل.

والأهم من كل ذلك، كانت تحمل بكل وضوح ما يعرفه عن أمها من جمال أخاذ وفتان، وأحس بقلبه ينتفض كطائر ذبيح.

وبعد أن تركه صديقه برهة يتأمل الصورة مد يده وأخذها وأعادهـا لمحفظتـه، ثـم دس المحفظة في جيب جاكتته وهو يقول:

- شاء المولى أن تصاب بمرض لا يعلم إلا هو مداه.

وتقلصت عضلات بطن كمال بعنف وهو ينتظر من صديقه أن يكمل.

- من صغرها بتشعر بزغللة في عينيها، ودوخنا بها عند الدكاترة، حتى وصلنا للدكتور أحمد برادة، ضروري تسمع عنه، ده أسرته أشهر أطباء العيون في البلد من أيام الدكتور إبراهيم برادة الكبير، أشهر طبيب عيون في مصر لغاية وفاته في آخـر الخمسينات أو بداية الستينات مش عارف.

وهز كمال رأسه موافقا، لا يتجرأ أن يظهر تبرمه لهذا الاستطراد الذي انغمس فيه صديقه بينما القلق ينهش قلبه، ثم استطرد جليسه:

- بعد فحوصات على أعلى مستوى الدكتور برادة قال إن العينين ليس بهما أي عيب، ولمح إنه يشتبه في وجود ورم في المخ، وإنه لا بد من علاجه بـسرعة وهـو لسة في بدايته.

ولم يجد كمال كلمات يعقب بها، فقد شل الموقف لسانه.

وبعد ثوان استمر الصديق:

- وتصور بعد كل المصاريف اللي صرفتها عليها وعلى المرحومة ..."

وصاح كمال:

- سميرة ماتت؟

ورد الصديق بصوت يفيض بالحزن:

- ما هي برضة البنت هي السبب، لأننا اكتشفنا بعد الحمـل إن قلـب سـميرة ضعيف، وفضلت تحت عناية شديدة لغاية ما وضعت الجنين، ولكن قلبها لـم يتحمـل صدمة خبر الورم اللي في المخ، فانهارت واضطرينا نعمل لها عملية راحت فيهـا، وكان آخر اسم على لسانها أسمك انته.

وهتف كمال في احتجاج:

- اشمعنى أنا؟

ثم استجمع هدوءه بسرعة، ورد جعفر دون أن يبدو عليه أنـه انتبـه لانفعـال صـديقه المفاجئ:

- بتوصيني إنني ألجأ إليك في موضوع سمارة، آه، نسيب أقول لك اسم الأمورة الصغيرة. أصل أنا وعدت "السنيورة" - زي ما كنت بدلعها قدامكم في شلة الأنـس - واحنا خايفين ما تعديش من الولادة سليمة إن المولود لو كان ولد يكون سمير ولو بنت هتكون سمارة.

وسرح جعفر برهة مع أحزانه، وتركه كمال حتى استأنف الحديث:

- طبعا انفتح علينا موضوع الورم بعد ما مرض قلب سميرة وزغللـة عيـون سمارة ما شطبو على كل اللي حيلتنا، فما كانش أمامنا إلا إننـا نأخـذ تحويـل مـن مستشفى الفيوم العام للقصر العيني عشان نعالج البنت بالمجان.

ورشف من الكوب مع قضمة من قطعة الجاتوه، واستأنف الكلام:

- عشان كده هي طلبت مني إني ألجأ إليك تساعدنا على دخول البنـت القـصر العيني، وقالت إنك مش هتفرط فيها أبدا، وإنك ها تعاملها كأنها بنتك اللي من دمـك ولحمك.

وانتظر جعفر مدة حتى تأخذ العبارة الأخيرة تأثيرها على عقل صاحبه، وازدادت الرعشة التي تسري في جسد كمال برودة،

ثم استأنف جعفر الحديث بصوت لا يكاد يسمع:

- وهو ده عشمي أنا برضه

وساد الصمت بين الصديقين برهة ليست بالقصيرة، كل واحد منهما سارح في الفكر حول هذا الموقف المثير للأشجان.

ثم كان كمال من قطع الصمت.

- عشمكم في محله إن شاء الله، أنا ها اتصل بمجدي عشان نأخـذ رأيـه فـي الموضوع لأنه له معارف في القصر العيني وفي وزارة الصحة على أكبر مستوى.

وعلق جعفر على هذه العبارة بقوله:

- وهو اللي زيه يغلب يكون علاقات ووساطات من كل شكل ونوع.

ورد كمال مؤمنا على كلام صديقه حول صديقهما الحاضر الغائب:

- الحقيقة هو واد طول عمره ملحلح وفهلوي ما فيش زيه، وهـو عمـره مـا هيتأخر عنك إنت بالذات، ده عيش وملح أكثر من ثلاث سنوات.

وهز جعفر رأسه متأثرا:

- فعلا، عيش وملح أكثر من ثلاث سنوات، وعيش وملح مع سميرة أكثر مـن عشر سنوات!

وبعد أن دفع كمال الحساب قال لصديقه معتذرا بخجل:

- آسف يا جعفر إنني مش قادر أعزمك في بيتي دلوقت، أصل البيت عندي....

فقاطعه جعفر:

- ومين عنده نفس يتضايف في الظروف دي، سيب الموضوع ده لظروفه.

وانصرف الصديقان بعد أن دون كمال رقم هاتف البنسيون الذي ينزل به جعفر، ودون جعفر

رقم الهاتف لمنزل كمال وكذلك رقم هاتف مكتبه.

******

في مساء نفس اليوم جاءت صاحبة البنسيون لتخبر جعفر بمكالمة له، وكمـا توقـع كـان الطالب هو كمال يتحدث من مكتبه:

- ألو.
- أبو كمال؟
- أيوه، شوف يا سيدي، أنا لسة حاطط السماعة بعد مـا كلمـت مجـدي فـي الموضوع، والراجل بيسلم عليك من كل قلبه وحدد معاد بكرة الضهر في نفس المكان الساعة اتنين، تعرف توصله واللا آجي أخدك من البنسيون؟
- والله فيكم الخير، ربنا ما يحرمني من اخوات زيكم، عارف طبعا المكان، هي مصر غريبة عليه؟
- طب نشوفك بكرة، تصبح على خير.
- وانت من أهله.

وعاد جعفر إلى غرفته.

وبعد فترة اتجه جعفر للهاتف وطلب رقم منزل صديقه كمال، وجاءه صوت الشغالة، وحين أخبرته أن الأستاذ كمال في المكتب، قال إنه يعلم ذلك، وأنه يريد المدام،

وجاءه صوت حريمي يجمع بين النعومة والسيطرة، وينبئ عن الانتماء لـسيدات صـفوة المجتمع

- ألوه، مين حضرتك؟

- عدم المؤاخذة يا مدام، أنا النزهي.

وساد صمت لثانية، ثم جاء الصوت مرة أخرى منفعلا:

- مين نزهي ده؟
- أخو سي الأستاذ كمال.
- وهو الأستاذ كمال له أخ اسمه نزهي؟
- عدم المؤاخذة يا ست هانم، أقصد زي أخوه بالضبط، هو ما حكاش لكي عني؟

ووضعت المدام السماعة وهي تبرطم في ضجر.

......

وعاد كمال من مكتبه في المساء ليجد زوجته في حال هياج، وبادرته فور دخوله البيت:

- إنت تعرف واحد اسمه نزهي؟

واندهش كمال للسؤال، وسأل زوجته:

- هو طلبني هنا؟
- يعني تعرفه!

وسأل كمال بحدة يغطي بها على الارتباك الذي شعر به نتيجة المفاجأة:

- أنا باسأل، هو طلبني هنا؟
- أيوه، بعد ما نزلت بنص ساعة أو أكتر.
- كان عايز حاجة؟
- معرفش.

وفهم من العبارة ومن لهجة زوجته أنها أغلقت الخط في وجه صاحبه، فقال محتدا:

- اسمه الأستاذ جعفر، مدرس رياضيات محترم من الفيـوم. النزهـي دا اسـم الشهرة بينا كأصدقاء.
- ولما هو محترم، بيتكلم ليه زي بتوع الشوارع؟

واستاء كمال من زوجته التي دائما يمنعها غرورها أن تشعر بالحالات النفسية للآخـرين، فبالتأكيد الرجل لم يكن في حالة تتيح له اختيار ألفاظه لتناسب زوجته الأرستقراطية، ووجد أن أفضل وسيلة لفض الشجار هو الانسحاب.

ولكن ظلت المفاجأة تحيره ...

ترى ما الذي يدعو جعفر أن يطلبه في البيت وهو يعرف أنه في المكتب؟

والأهم من ذلك، لماذا لم يذكر ما يريده أثناء مكالمتهما معا؟

******

كان لقاء الدكتور مجدي بجعفر حارا كلقاء كمال، وبعد انتهاء طقوس الترحيب وتذكر الأيام الخوالي أخذ الأصدقاء يتناقشون في أمر الطفلة الصغيرة.

وكان رأي مجدي أنه يمكن الحجز لها في القصر العيني ولكن بالدرجة الثانيـة حتـى لا يتأخر الكشف عليها ربما لأكثر من عام.

ولم يستطع جعفر التحكم في دموعه وهو يبين لصديقيه أنه غير قـادر علـى تنفيـذ هـذا الاقتراح، وليس أمامه إلا الانتظار ولو عشر سنوات، والبنت يتولاها الله برحمته.

وأمسك كمال بيد صديقه وقال:

- جعفر يا اخويا، روح هات البنت، وانشاء الله ربنا هيعمل إللي فيه الخير.

وأصر كمال على دعوة صديقيه للغذاء، وخيرهما بين طعام خفيف في الكافتيريا أو التوجه لأحد المطاعم، وترك الصديقان جعفر يقرر، فقال بصوت يغلب عليه الأسى:

- خلينا هنا أحسن، مين له نفس ياكل أصلا.

وطلب كمال قائمة الطعام، واختار كل واحد طلبه، وفي فترة انتظار الطلبات أخرج جعفـر قطعة حلي ذهبية من جيبه وأراها لصديقيه، وسألهما إذا كان أحدهما يستطيع مساعدته علـى بيعها.

وأصر جعفر على بيع قطعة الحلي رغم إلحاح صديقيه أن يعطياه ما يريد من نقود علـى سبيل القرض، وفي النهاية أخذ الدكتور مجدي قطعة الحلي، وأعطى جعفر ما يلزمه من نقود في الوقت الحالي، على أساس أنه بعد أن يبيعها يتحاسبان.

وبعد أن دس جعفر النقود في حافظة نقوده، قال لكمال وهو يدخل الحافظـة فـي الجيـب الداخلي لجاكتته:

- أنا آسف يا بو كمال، يظهر إني أزعجت المدام امبارح.

فسأل كمال في استغراب:

- وانت ليه طلبت البيت، كنت عايز حاجة؟

- الحقيقة كنت عايز نمرة المكتب، يظهر إني كتبتها غلط، وكنت عايز أسـألك عشان بيع حتة الدهب.

ثم أردف قائلا باستحياء:

- بس المدام قفلت الخط قبل ما أسألها.

وشعر كمال بحرج شديد تجاه صديقه، وتمتم عدة كلمات لتهدئة خاطره، ولكن صديقه طلب منه نسيان الموضوع حيث إنه ليس غاضبا، إذ لعله طلب المنزل في وقت غير مناسب.

وبعد الغذاء انصرف كل واحد منهم إلى مسكنه، وقد وعدهما جعفر أن يتوجه للفيوم في أول موعد في اليوم التالي، ويكون بالقاهرة مع الطفلة في خلال أسبوع على الأكثر، وفي هذه الأثناء يكون مجدي قد عمل اللازم مع معارفه.

******

وفي الطريق للفيوم، جلس جعفر في مقعده بالسوبر جت يسترجع أحداث اللقاء في اليومين السابقين.

لم يكن لديه أي شك في إخلاص صديقيه،

... ومع ذلك كانت مشاعره أبعد ما تكون عن العرفان بالجميل تجاههما.

نعم، لن يتأخر مجدي عن التوصية على الطفلة على أعلى المستويات.

ونعم، لن يتأخر كمال حتى عن تحمل مصاريف العلاج مهما بلغت.

ولكن، ليس لأجل خاطره هو،

... فكلاهما يعرف أن سمارة هي بالفعل من دم كمال ولحمه !!!

وعادت به الذكرى لعشر سنوات مضت.

......

لقد عاش جعفر مع سميرة - التي تزوجها بعد قصة حب سرت في الفيوم كقصص الغرام المشهورة في التاريخ - في سعادة وهناء، لم يعكر صفوهما إلا عدم الإنجاب.

وبعد أن يئسا من أن يرزقا بالأطفال بعد أن أثبتت الفحوص أن جعفر غير قادر عليه، سلما أمرهما لله.

ويحفظ جعفر لزوجته أنها لم تبد أي تأثر بهذه الحقيقة، وظلت الحياة الزوجية بينهما مضرب الأمثال في الود والإخلاص.

وذات يوم جاء كمال يبشر جعفر بأن الدكتور مجدي تحصل على دواء للعقم حديث الإنتاج جاءه توا من الخارج على يد أحد أقاربه، وأن تجربته إن لم تنفع لن تضر.

وبالفعل تظاهر مجدي بعلاج جعفر بهذا الدواء، رافضا أن يأخذ مليما واحدا لقاء هذه الخدمة، بحجة أنها ليست إلا رد جميل لخدمات جعفر المتعددة لأصدقائه.

ولم يطل الوقت حتى ظهرت أعراض الحمل على سميرة بالفعل، وفرح جعفر – الذي انطوت عليه الحيلة - فرحا شديدا بشفائه من العقم، وراح يعد الساعات انتظارا لأن يكحل عينيه بالمولود المنتظر.

وكان أمله بعد أن وضعت زوجته حملها الأول أن يكون له "زربة" عيال كما يقال باللغة العامية، ليفرغ فيهم حبه الشديد للأطفال.

ولكن حين لم يرزقا إلا بالطفلة التي وضعتها زوجته، حمد الله على ذلك، ولم يشعر وهـي بين أحضانه بأن هناك حاجة تنقصه، فقد كانت قرة عينه وملء سمعه وبصره.

وبعد شهرين أو ثلاث من ظهور الحمل على سميرة انتقل كمال من الفيوم إلى بلد آخر بعد ترقيته. وعلم جعفر أنه بعد زواج كمال من زوجته الثرية استقال من عمله الحكومي وافتـتح بفضلها مكتبا للمحاماة في مكان راق بالقاهرة.

وسرعان ما اكتسب كمال شهرة واسعة في مجال المحاماة، لذلك لم يكن صعبا على جعفر ترتيب اللقاء معه في دار القضاء العالي، فقد كان يتابع عن طريق الصحافة القضية الـشهيرة التي كان يترافع فيها يوم أن التقى به.

وانتقل مجدي بدوره من الفيوم بعد كمال بأسابيع قليلة، بعد أن اسـتجابت وزارة الـصحة لطلباته المتكررة للنقل إلى القاهرة ليواصل دراسته العليا، وها هو اليوم يجمـع بـين العمـل بالجامعة والعيادة التي يملكها ليس بعيدا عن مكتب صديقه كمال.

وهكذا كتب لكل واحد من الأصدقاء الثلاثة أن يشق طريقه في الحياة بعد تفـرقهم، لكـل واحد منهم سبب لأن ينظر للمستقبل بعينين متفائلتين.

كمال سعيد بزوجته، ومجدي سعيد بمستقبله، أما جعفر فهو الأكثر سعادة بفلذة كبده التـي تتفتح أمام عينيه كزهرة ناضرة.

إلى أن جاء اليوم المشئوم الذي دمرت فيه سعادته، وولت أيام النزهي إلى غير رجعة.

كان الحديث عابرا بين جعفر وطبيب جديد التحق لتوه بالمستشفى العام، يحـضر رسـالة للحصول على درجة الماجستير في عقم الرجال.

وأخبره جعفر بتجربته في هذا الأمر، وكيف أنه شفي من العقم على يد صـديقه الطبيـب مجدي منذ عشر سنوات.

كان طبيعيا أن تثير القصة اهتمام الطبيب الباحث، فطلب من جعفر أن يطلعـه علـى مـا خضع له من علاج، وكانت من عادة جعفر أن يحتفظ بملف طبي لنفسه ولأفـراد أسـرته، لا يفرط في أية وثيقة منه مهما كان العلاج بسيطا، وحتى لو انتهت الحالة المرتبطـة بـه منـذ سنوات.

وبالفعل قدم جعفر إلى صديقه الطبيب ملفه الطبي كاملا. وحين درس الطبيب ما بـالملف من فحوص خاصة بحالة العقم رفع رأسه وسأل بنغمة لم يرتح لها جعفر لـسبب لـم يعرفـه وقتها:

- ما هو نوع العلاج بالضبط الذي مارسه الطبيب المعالج؟
- نوع من الحبوب كنت أتعاطاه لمدة أسبوعين.
- لكن العلاج مش مكتوب في الملف.

- ما هو ما كانش علاج رسمي، دي كانت خدمة ودية.
- طب فاكر اسم العلاج؟
- الحقيقة لأ.

وراح الطبيب يقلب مرة أخرى في الأوراق التي أمامه، ثم رفع رأسه وسأل:

- وهل كان الطبيب متخصصا في العقم؟
- لا، كان في بداية حياته لم يتخصص بعد.

وبعد برهة عقب الطبيب ببساطة وهو يعيد الملف.

- كل شيء جايز، وفوق كل ذي علم عليم.

وتناول جعفر الملف وودع الطبيب وانصرف، ولكن بشعور أن شخصا آخر غيـر الـذي يعرفه طوال عمره قد احتل مكان الروح منه.

لأول مرة يعرف النزهي كيف يكون مذاق الشك، ويعايش القلق المصاحب له، والتخبط بين التشاؤم والرجاء،

.... تشاؤم أن يكون مصيبا في فهم إيحاءات الطبيب بعباراته ونبرات صوته التي تـوحي بأن قصة علاجه من العقم لم تكن جدية،

.... والرجاء أن يكون مخطئا في ذلك.

وقضى ليلة هي بعمر الزمن عدة ساعات، وبعمر الأحاسيس التي تتقاذفه كريشة في مهـب إعصار جبار .... دهورا لا حصر لها.

ولم يكد ميعاد العمل بالمستشفى يحل إلا وكان جعفر أول الداخلين من بوابته التـي ظـل مرابطا أمامها منذ الصباح الباكر.

وفي انتظار نتيجة التحاليل التي أجراها، كان جعفر النزهي كمن أدخلت رأسه في مقصلة، بينما هو يتمنى معجزة من السماء تنقذه قبل أن يهوي نصلها على رقبته.

ولكن القدر لا تدفعه معجزات،

وجاءته الفحوص بالنتيجة التي كانت تنتفض أوصاله لمجرد التفكير فيها.

النتيجة قاطعة لا لبس فيها،

إن الأستاذ جعفر لا يزال غير قادر على الإنجاب!!

******

انطلق جعفر يضرب في الأرض على غير هدى، وطنين الآلاف من أسراب النحل تـدوي في رأسه، يهيم في شوارع المدينة ودروبها ينطبق عليه قول الشاعر:

كسفين ليس لها رب تسعى في بحرالظلمات.

وسيطر عليه شعور من انتقل في لحظة خاطفة إلى كوكب غير الكوكب الذي عايشه طوال حياته،

... فلا البشر هم نفس البشر،

... ولا الأماكن هي ذات الأماكن،

... وحتى الأصوات، ليست هي ذات الأصوات!

كوكب ينتمي إلى كون انقلب رأسا على عقب، فاختلطات فيه كـل المتناقـضات، وصـار عشوائيا لا محل فيه لمبادئ أو قواعد أو قوانين، ولا مجال فيه لفهم أو منطق،

... لقد اختلط القبح بالجمال، واختلط الكذب بالصدق، واختلط الباطل بالحق، واختلط الجـد بالهزل،

... واختلطات النذالة بالمروءة!!

......

وبعد أن أنهكه السير لفترة لا يعلم مداها، انتبه جعفر إلى أنه يقبض على وريقات تكرمشت في يده حتى كادت تتمزق.

وفي أول صندوق للقمامة صادفه ألقى بها.

وحين بدأ عقله يسترد نشاطه ويخرج رويدا من ظلمة المفاجأة إلى صرامة الواقـع، وجـد نفسه يسير على كورنيش بحر يوسف، متجها لأحب أماكن الفيوم إليه.

بقدرة قادر وجد نفسه أمام سواقي الفيوم الشهيرة.

واتجه إلى الكافيتريا التي تطل على السواقي، وقادته رجلاه كالمنوم مغناطيسيا إلى مكانـه المفضل فيها.

لم يكن مطلوبا منه أن ينادي على الجرسون، فقد سمع صوته يدوي بمجرد أن رآه:

- وعندك أحسن واحد بن محوج سكر زيادة لأحسن زبون.

وبعد لحظات جاءه الجرسون مسرعا بالطلب مع كوب الماء المثلج، وفي أثناء ذلـك كـان البائع المرابط أمام الكافيتريا بعربته منذ زمن لا تعيه ذاكرته قد جاءه بالكوكتيل المحبب إليه، الترمس وحب العزيز والفول المحمص المتبل، ووجد قدماه وقد وضعتا دون طلب منه علـى صندوق يعمل صاحبه بكل حماس في تنظيف حذائه.

كان كل ذلك يجري وكأنها طقوس تعود عليها لسنوات طويلة، مفعمة بالابتسامات الودودة وكلمات التحيات المعسولة.

ولكن طعم الطقوس هذه المرة لم يكن ككل مرة!

واصطنع بقوة خارقة الابتسامات التي تعود أن يرد بها على أولئك القوم الـذين أصـبحوا لطول العشرة يغمرونه بحبهم واحترامهم.

وبينما هو يرشف القهوة بعد أن نحى طبق الكوكتيل بعيدا دون أن يمس شيئا منـه، سـمع بوحي من خياله – كما هي العادة كلما جلس في ذلك المكان – صوت عبد الوهاب آتيـا مـن الفضاء البعيد يتغنى بالموال الشعبي الشهير:

سبع سواقي بتنعي لم طفو لي نار

يا منية القلب قولي إزاي عشق الجار

يبقى النظر في النظر والقلب قايد نار

كان هذا حينما كانت السواقي سبعة، وكانت تلعب دورا هاما في ري الأراضي المرتفعـة عن مستوى بحر يوسف،

... ولكن تطور الزمن والتحول إلى ماكينات الري هبط بعدد هذه السواقي إلـى أربعـة، تركت فقط لقيمتها السياحية.

وكان جعفر يشعر دائما بالتعاطف مع السواقي وهو يرى عددها يتقلص عن العـدد الـذي اشتهرت به في التراث المصري، من سبع سواقي حتى صارت أربعة.

ولكن من يتعاطف معه اليوم وقد تبددت أهداف حياته جميعا،

... عدا هدف واحد،

... هدف يتمنى أن يحققه، ثم ليكن بعد ذلك الطوفان،

... أن يشفي غليله، وأن يطفأ النار المتأججة في صدره!

وأمدته تلك النار بقوة خارقة استعاد بها صفاء ذهنه حتى يتمكن من مواجهة الموقـف الـذي يهزأ بأكثر الكوابيس إفزاعا،

وبنفس القوة الخارقة استطاع أن يخفي مكنون صدره عن كل الناس المحيطين به، بما فـي ذلك تلك الحشرة المقززة التي تشاركه الفراش.

وكان السؤال الأول هو، من ترى يكون ذلك الوغد الذي لطخ شرفه؟

واستعرض كافة الاحتمالات بناء على تاريخ حمل زوجته، فانحصرت في شخصين اثنين، مجدي وكمال، ولما كان كمال هو الأقوى علاقة بالأسرة، والأكثر ترددا عليها، فاحتمـال أن يكون هو الفاعل أكبر بكثير من الأول.

ورجحت تفاصيل دقيقة في ملامح الفتاة الصغيرة - لم يكن قد لاحظها قبل أن يدب الشك في نفسه - هذا الاحتمال بدرجة تصل بالشك إلى اليقين.

وبعد عدة أيام استقر رأيه على خطة انبرى لتنفيذها في الحال.

******

بعد شهرين من هذا اليوم المشئوم كانت سميرة في عداد الأموات.

ولأول مرة يشكر جعفر فترة دراسته الفاشلة في كلية الصيدلة.

كان جعفر قد التحق بعد اجتياز الثانوية العامة بتفوق بكلية الصيدلة، وظل بها ثلاثة أعوام، قضى منها عامين في السنة الأولى، ثم نقل في العام الثالث للسنة الثانية مثقلا بكم لا بأس به من مواد السنة السابقة.

وتأكد بعد نتيجة العام الثاني أنه لو واصل دراسته بكلية الصيدلة فلن يتخرج منها إلا قريبا من سن المعاش. وبناء على نصيحة من بعض زملائه قرر التحويل لكلية العلوم، بعد أن علم أن ذلك ممكن طالما أن كلية العلوم تتطلب مجموعا أقل من كليته التي هو بها بالفعل، واختار قسم الرياضيات ليكون أبعد ما يكون عن المواد الصيدلانية.

ورغم قصر مدة التحاقه بكلية الصيدلة، فقد استطاع بفضلها من الاستعانة بالمصادر التي تمكنه من صنع مادة سامة تسير في الجسد على مهل.

وضارب جعفر على أن كشف مثل هذه الجريمة أمر صعب على الأطباء حديثي الخبرة الذين سوف يتعمد أن يعرض زوجته عليهم أثناء سريان مفعول السم، خاصة وأنه سيتعمد أيضا ألا تظل زوجته تحت رعاية طبيب واحد لمدة تسمح له بأدنى شك حول الحالة.

ونجحت خطته بالنسبة للضحية الأولى في مسلسل الانتقام الذي خطط له، فقد تضاربت التشخيصات حول مرض الزوجة تضاربا شديدا حتى وافاها الأجل.

ومثل كل الأزواج الأوفياء، أقام جعفر لزوجته الراحلة مراسم الدفن على أعلى مستوى، وفي سرادق العزاء أرخى العنان لدموعه تنهال أنهارا.

ولم يلق بالا لجموع المحيطين به أن يرحم نفسه وأن يعتصم بالصبر والسلوان.

كانت دموعا حارة تكوي كبده، يفجرها صوت يهتف به من أعماق نفسه: "إبك كالنساء على بيت لم تحافظ عليه كالرجال"!

ولم يفتأ خلال العزاء يلعن ذلك النزهي الذي هدم بسذاجته وحماقته بيته.

وصدق من قال: "الحمق داء ما له دواء".

لقد انطفأت نار الثار، وجاء وقت حساب النفس.

حساب نتيجته معروفة منذ قديم الأزل، ندم، ولكن في وقت لا يجدي معه الندم!

لقد كانت سميرة جوهرة حباه الله بها، فلم يحافظ عليها من عبث العابثين!

لقد كان بالنسبة لها شيطانها الذي دفع بها إلى الخطيئة، ثم جلادها الذي جعلها تدفع ثمنها.

وتحت سيطرة هذا الشعور، وبعد أن استحالت سميرة أمام عينيه جسدا لا روح فيه، اختفت من مخيلته الصورة الكريهة لزوجة خائنة، وعادت سميرة الحبيبة التي عاش معها أحلى أيام العمر.

وضم جسدها البارد إلى صدره، وقبل وجنتها، ثم سجاها على الفراش وشد الغطاء على وجهها، وانصرف ولسانه يلهج بالدعاء لها ولنفسه بالغفران.

أما مشاعر جعفر تجاه الطفلة بعد أن أفقدها أمها فكانت غير متوقعة على الإطلاق، حتى منه هو نفسه.

لقد كان لأثر نظرته إليها كضحية للخيانة مثله، وكونهما معا يتيمين فقد كل منهما الصدر الحنون في لحظة من غدر الزمان، أن زادت مشاعره تجاهها حبا وتعلقا.

إن سمارة ستظل هي سمارة كما كانت لحظة أن وقع بصره عليها،

ولن تستطيع قوة في الوجود أن تغير من حقيقة أنها سمارة،

.... قرة العين،

... وملء السمع والبصر!

لم تنسه الصدمة بعنفها وقسوتها فرحته بوصولها، ولا لهفته لما يلم بها من مرض، ولا ابتهاجه بما تحققه من نجاح، ولا سعادتها به أو سعادته بها في أوقات الرضا، أو غضبها منه أو غضبه منها في فترات سحابات الصيف بينهما، والتي كانت على الدوام تنقشع كأن لم يكن لها وجود.

لم تنسه الصدمة الآمال العريضة التي كان، ولا يزال يحلم أن يحققها لها.

لقد أصبحت سمارة المبرر الوحيد لوجوده، والنور الوحيد في حياته، ومصدر السعادة الوحيد في دنياه بعد أن ضيع بيديه حبه الوحيد الذي لم يخفق قلبه إلا له.

على أن هذه الكائنة الملائكية يمكنها أن تسدِ له خدمة ترد بها دينها تجاهه،

خدمة لا يستطيع أحد غيرها أن يسديها له، أن تكون الطعم الذي يستدرج به النذلين الآخرين، وأن تشاركه – رغم طبيعتها الملائكية ودون وعي منها – الانتقام ممن هدم البيت الهانئ السعيد الذي عرفته منذ نعومة أظفارها.

******

مرت الأيام بطيئة على كمال وهو ينتظر رؤية ابنته كجسد حي يستطيع ضمه لصدره وليس ورقة توضع في المحفظة، وكلما ضم أحد وليديه التوأم شعر بحاجته أن يضم أختهما الكبرى بنفس الحب والحنان، خاصة وأن حالتها المرضية زادتها في قلبه حنانا وإشفاقا.

وتحول الشوق إلى قلق حين تأخر جعفر في إحضار الفتاة رغم تصريحه بأنه يسابق الزمن حتى لا تزداد حالتها سوءا.

وعلى غير إرادة منه انعكس القلق على تعاملاته جميعها، حتى أصبح الأمر واضحا للجميع فيما عداه هو.

ولم يكن مستبعدا أن تربط الزوجة بين هذه الحالة التي ألمت بزوجها وبين المكالمة الغامضة من ذلك النزهي الذي لم يذكر لها زوجها كلمة واحدة عنه في أية مناسبة، أو حتى يريها صورة له في ألبوم صوره، رغم اعترافه بالعلاقة بينهما بحرارة تبين متانة تلك العلاقة.

www.kotobarabia.com

ولم تستطع الزوجة أن تتغلب على فضولها وحيرتها، ففاتحت زوجها ذات مساء:

- فاكر الجدع اللي اسمه النزهي؟
- ماله؟
- ليه ما كلمتنيش عنه أبدا؟
- ما جاتش مناسبة.
- بس دا بيقول إنكم زي الإخوات.
- يمكن الراجل شاعر بكده، هالومه على مشاعره؟
- طب وليه حالك انقلب بعد ما قابلته؟
- يعني إيه حالي انقلب؟
- إنت مش حاسس بنفسك والا إيه؟
- والنبي ارحميني من تهيؤاتك دي.

ولو كان النزهي حاضرا هذه المناقشة لازداد غروره لمهارته في صيد الذئاب، فهذا الذئب البشري يسير تماما في الخط المرسوم له ليدفع ثمن نذالته.

لقد أفلح الزوج الذي انهدمت حياته الزوجية في رد الكرة على غريمه بأن شق فجوة في حياة غريمه الزوجية، وما عليه إلا أن يزيد الشق اتساعا.

*****

ولم يكن باستطاعة كمال أن يجلس بالقاهرة يمارس عمله وهو لا يدري ماذا ألم بابنته، وقد اقترب الشهر على نهايته ولا حس ولا خبر عن جعفر والطفلة التي كان المفروض أن يحضرها معه.

وراحت الظنون تلعب بأعصاب كمال، خشية أن تكون البنت قد توفيت ولم يهتم جعفر لسبب أو لآخر بإخباره.

وأخيرا لم يجد بدا من أن يشد الرحال إلى الفيوم.

ولم يكن يدري أن صديقه كان في انتظار زيارته بصبر الواثق من نجاح تخطيطه، وأنه أعد العدة لها على أحسن وجه.

ولم يكن صعبا على كمال الاهتداء إلى المنزل الجديد الذي انتقل إليه صديقه جعفر بعد وفاة زوجته، وقال جعفر بمجرد رؤية ضيفه لدى الباب مصطنعا الدهشة:

- أستاذ كمال، معقول تعطل مصالحك للدرجة دي وتيجي لحد هنا؟

ورد كمال وهو يحاول أن يجعل انفعاله في حدود المعقول

- ما هو انت شغلتني عليك وعلى بنتك، إيه الحكاية؟

www.kotobarabia.com

- يا سيدي مانا كنت جاي بعد يومين بالضبط، بس الله يلعن الروتين، أنا طلبت أجازة طويلة عشان أقدر أكون مع البنت فترة العلاج، ودي يا سيدي لازم تعتمد مـن الإدارة التعليمية بالمحافظة، واديني عقلك بقى جواب رايح وجواب جاي، وتعلل بعدم وجود مدرسين كفاية وقرب امتحان الثانوية العامة، والله يا شيخ وما لك عليه يمين أنا ما جبت الأجازة إلا بواسطة من النائب بتاع الدايرة بتاعتنا.

ولم يكن كمال يسمع كلمة من كل هذا الحديث، فقلبه ينبض بعنف لرغبته في رؤية الطفلة، وسأل صديقه بعد أن اتخذ مجلسه:

- أمال البنت فين؟ مش شايفها هنا يعني مع إن ميعاد المدرسة المفروض يكون انتهى؟

- ما انا موديها عند قريب ليه تعيش مع أولاده بدل ما تكـون معايـا لوحـدنا، خصوصا عشان يخففوا عنها حزنها على أمها الله يرحمها. بس بعد ما ناكل لقمة مـع بعض ها اطلبها بالتليفون، هي قريبة من هنا مش بعيدة.

وتجول كمال ببصره في الغرفة التي يجلس فيها، كانت كأنها معرض تصوير فوتـوغرافي لسمارة منذ لحظة ميلادها إلى عمرها الحالي، في كافة المواضع المحببة للأهل التي توجد فيها الأطفال من أقرانها.

وكان طبيعيا أن يشعر كمال بالأسى لكون جعفر هو الذي تمتع بهذه الطفولة الجميلة بينمـا حرم هو منها.

وكانت صورة قريبة من الحجم الطبيعي لسميرة تتوسط هذه الـصور، واقفـة برشـاقة، وتحمل كل ما كانت عليه من جمال وفتنة.

ولم يكن لجعفر نصيب في هذا المتحف التصويري إلا في صورة واحدة، مكبرة بـدورها بدرجة ملحوظة، يتوسط فيها سميرة وسمارة في أحد أعياد ميلاد الطفلة، ويـشع مـن وجـه الثلاثة السعادة البالغة أمام التورتة والشموع التي لم تطفأ بعد.

وكان جعفر وهو يعد المائدة يختلس النظر ليشاهد صديقه وهو يدور بعينيه على الصور، ليرى مدى نجاحه في استثارة مشاعره إلى أقصى حد.

ومرت كل دقيقة أعد فيها جعفر المائدة وتناولا فيها الطعام على كمال كدهر كامـل وهـو متحرق لرؤية ابنته، وتعمد جعفر إطالة فتـرة تنـاول الغـذاء، وراح يـسرح بـضيفه فـي موضوعات يعلم تماما أنه لا يهتم بها، ولا حتى يسمعه وهو يتحدث عنها.

وحضرت الصغيرة أخيرا مع أحد أقربائها الذي يقاربها في العمر، وبذل كمال كل ما وسعه من قوة تحكم في أعصابه حتى يبدو لقاؤه بابنته التي يراها لأول مرة غير مبالغ فيه، وقال لها جعفر:

خشي يا سمارة، ده عمك كمال، زي بابا بالضبط.

.واستقبلها كمال بين أحضانه، وقبل وجنتيها وهي مستسلمة له في وداعة، وسلمها الهـدايا التي جلبها لها معه. وبعد أن شكرته على هداياه بطريقة تنم عن تربية راقية، قال لها جعفر:

ما تفرجي عمك كمال على حاجاتك الحلوة اللي عندك في المكتبة.

وأسرعت الطفلة لتحضر ما لديها من كتب ولعب، وراحت تطلع عليها الضيف مهتمة بأن تظهر له مهاراتها في القراءة باللغتين العربية والإنجليزية، وفي تكـوين الـصور المتقطعـة المعروفة باسم (البازل)، وشطارتها في حل الألغاز والمسائل الحـسابية العويـصة بالنـسبة لعمرها، وفي التعرف على ما بالكتب من معلومات تزيد على مستوى أقرانها.

وتحقق كمال من أن جعفر قد وضع كل إمكانياته التربوية للوصول بمن يعتقد أنها ابنته إلى أعلى المستويات، وكان إعجابه البالغ لذكائها وخفة روحها مصحوبا بأسف عميق أنها لم تتح لها فرصة الدراسة في مدارس القاهرة الراقية مع أخويها.

وتركهما جعفر في مرحهما المشترك ولم يتدخل بكلمة واحدة.

وبعد أن اطمأن كمال على الفتاة، وجدد الوعد لصديقه بمراعاتها خير رعاية حين يأتي بها للقاهرة، استأذن في الانصراف، واعتذر بشدة عن قبول دعوة جعفر للمبيت لديه هذه الليلة.

وودع جعفر وسمارة الضيف حتى ركوبه سيارته والانطلاق بها، ثم عادت سـمارة مـن حيث أتت، وتركت "والدها!" بمفرده في البيت.

......

وبعد ساعة من الزمان، رفع جعفر السماعة وطلب منزل كمال وهو متأكد أنه لـم يـصل بعد.

وجعل حجته في المكالمة السؤال عن وصول (أخيه!) كمال بالسلامة، وتأكيد أنـه سـوف يعود للقاهرة في الموعد المحدد بينهما.

وجلست زوجة كمال بعد المكالمة الثانية والغريبة مع هذا النزهي الذي طلع لها في حياتها من حيث لا تدري، وراحت الأسئلة تنهال على عقلها؛

لماذا يذهب زوجها لهذا الرجل في بلده؟

ولماذا كذب عليها قائلا إنه ذاهب لحضور جلسة في إحدى محاكم الإسكندرية؟

وما الذي بينهما حتى يأتي ذلك الرجل مرة أخرى ليقابله في القاهرة؟

وما سبب حضوره الغامض للقاهرة في المرة الأولى؟

وماذا كان يريد منها في المكالمة التي لم تدع له فرصة لإنهائها ؟

كانت واثقة كل الثقة من أنها لن تخرج بطائل من سؤال زوجها هذه الأسـئلة، وعليهـا إذا أرادت الحقيقة أن تستخلصها من الشخص الغامض نفسه.

واتجهت لجهاز الهاتف المجهز بذاكرة تحتفظ بأرقام المكالمات، ودونت رقم الطالب الـذي أنهى المكالمة لتوه، ثم رفعت السماعة لتطلبه.

وحينما سمع جعفر صوتها ابتسم ابتسامة عريضة.

وحاولت الزوجة هذه المرة أن تكون ودودة قدر طاقتها:

اسمع يا أستاذ نزهي، إنت وغوشتني على كمال، هو خرج من عندك الساعة كام؟

من ساعة ونص تقريبا يا ست هانم.

يعني لسة في الطريق، ليه ما انتظرتش لما يوصل عشان تتطمن عليه؟

الحقيقة أنا ما باعرفش الأستاذ بيسوق إزاي، أنا خفت يكون من اللي بيجروا علـى الطريق والطريق خطر خاصة بالليل زي مانتي عارفه.

طب يا أستاذ نزهي ...

اسمي جعفر يا ست هانم.

آسفة، يا أستاذ جعفر، مش عيب تكون زي أخو كمال وتيجي القاهرة مـن غيـر منشوفك وتعمل معاك الواجب؟

والله يا ست هانم موضوع البنت شاغلني على الآخر.

بنت؟ بنت إيه؟

بنتي يا ست هانم، هو كمال ما قاللكيش؟

لأ، ما قلّيش حاجة.

بنتي يا ست هانم محتاجة عملية في المخ عشان إزالة ورم فيـه، وكمـال وعـد يساعدني.

وبفعل الأمومة اقشعر بدن الزوجة حين تمثلت أحد والديها في وضـع مثـل هـذه البنـت المسكينة، وتعاطفت مع الرجل وأحست بأنها ظلمته حين ظنت به الظنون.

ولكنها في نفس الوقت تعجبت من أمر زوجها، فلو كان صادقا في رغبته لمعاونة صـديق عمره كما يقول، فلماذا لم يتحدث معها بهذا الشأن، رغم علمه بوجود أطباء في أسـرتها فـي هذا التخصص؟

وزاد الشك في قلبها،

هل في علاقة زوجها بصديقه هذا شيء لا يريد منها أن تعرفه؟

وواصلت الحديث مع جعفر، وهي بدورها صادقة العزم على مساعدته في محنته:

- طب يا أستاذ جعفر، أنا أحب أشوفك، لأني يمكن أقدر أخدمك مـن نـاحيتي، إمتى جاي القاهرة؟
- بعد يومين يا ست هانم، هاجي ومعايا البنت زي ما وعدت كمـال والـدكتور مجدي.

وسألت الزوجة مندهشة:

- انت تعرف الدكتور مجدي كمان؟
- آه أعرفه، كان مع كمال أيام ما كانوا عندنا في الفيـوم، وهـو وعـد إنـه هيساعدني في دخول البنت المستشفى.
- طب اطلبني أول ما تيجي.
- على عيني وراسي يا هانم..
- بس يا ريت ما تقولش لكمال على المكالمة دي، عشان كل واحد مننا يمـشي في طريقه، واللي فيه الخير يقدمه ربنا.
- ربما يخليكي يا ست هانم.

******

حضر جعفر بعد يومين للقاهرة، ولكن بدون الفتاة الصغيرة كما وعد الجميع، فالخطـة لا تحتاج حضورها، خاصة وقد أوشك مسلسل الانتقام على نهايته.

ولم يخطر كمال بحضوره، وبدلا من ذلك طلب زوجته حسب الوعد معها.

وضربت له الزوجة موعدا في النادي الذي ترتاده في اليوم التالي، وأخبرته بأنـه سـيجد اسمه على البوابة الرئيسية، وحددت له مكانها وكيف يصل إليها من البنسيون الذي ينزل فيه، ثم أخبرته أن يسأل عن "مدام كمال رستم" في كافيتريا "لابوار" بداخل النادي.

وفي الكافيتريا المقصودة بالنادي كان التعارف بين جعفر وزوجة صديقه، وبعد تحية اللقاء وإحضار الطلبات سألته الزوجة:

- بنتك فين دلوقت يا أستاذ جعفر؟
- في البنسيون يا ست هانم.
- في البنسيون؟ وازاي تسيبها لوحدها هناك؟
- لا يا ست هانم، أنا واخد على البنسيون ده من سنوات طويلة، وكنا دايما أنزل فيه مع المرحومة لغاية ما أصبحنا مع أصحابه زي عيلة واحدة من أيام جوز صاحبة البنسيون - الله يرحمه - ما كان موجود.

- المرحومة هي زوجتك طبعا؟
- الله يرحمها يا هانم، والله قطعت بيه من يوم وفاتها.
- هي ماتت بإيه؟
- القلب يا ست هانم، ماتت أثناء عملية في القلب من شهر واحد بس.
- وبنتك، كام عمرها دلوقت؟

وبدلا من أن يجيب، أخرج لها الصورة وتركها تتأملها، بينما أخذ هو يغالـب الـ دموع ... دموع التماسيح بطبيعة الحال.

وبعد فترة من التأمل ناولته الزوجة الصورة وهي تمتدح جمالها وذكاءها الذي يبـدو مـن عينيها.

وبينما جعفر يعيد الصورة لمحفظته، ألقى بعفوية بالغة القنبلة التي أعدها لزوجة صديقه منذ وقت طويل:

- شوفتي الشبه بينها وبين الأستاذ كمال!

وشهقت الزوجة شهقة أدخلت ما في فمها من طعام إلى حنجرتها، وراحت تسعل بعنف، وقام جعفر ليناولها كوب ماء يساعدها على التخاص من هذه "الشرقة"، وقبل أن تنتهي الزوجة من سعالها واصل حديثه:

- يظهر المرحومة كانت بتتوحم عليه.

وسألته وصوتها لا يزال متحشرجا:

- بتتوحم عليه يعني إيه؟
- ما هم كانوا بيحبوا بعض جدا.

ونظرت إليه الزوجة بحدة، وسألت وهي لا تكاد تصدق أذنيها:

- هم مين دول اللي يحبوا بعض؟
- الأستاذ كمال والمرحومة.

وأحست بأن الأرض تدور بها، وقالت بفظاظة:

يعني إيه بحبوا بعض؟

زي الخوات طبعا، أيوه، كانوا زي الخوات.

وفتحت الزوجة فمها لا تدري بماذا تعقب، وواصل هو الحديث:

- أصل الحكاية يا ست هانم إن المرحومة كانت غاوية روايات رومانسية، مـن بتاعة الحب والغرام والحاجات دي، والعبد لله طبعا ما لوش في الكـلام ده، كـل الله باعرفه كراريس الطلبة، والجذر التربيعي والجذر التكعيبي، وهي طبعا مـا لهـاش

بيرضه في الكلام ده، فالأستاذ كمال هو اللي حل الإشكال ده لأنه بيرضه زيها غـاوي القصص اللي من النوع ده.

وساد صمت بين الاثنين، الزوجة لا تجد كلمات تعقب بها على ما تسمعه، وجعفر يستمتع بأثر كلامه على الزوجة التي راح عقلها يضرب أخماسا في أسداس.

وأخيرا كانت الزوجة من كسر حاجز الصمت

وكان كمال بيشوف مراتك فين؟

عندي في البيت يا هانم، كان بيتي مفتوح دايما للأغراب من المـوظفين، نلعـب كوتشينة ونسهر مع بعض.

وزوجتك كانت بتحضر معاكم؟

طبعا يا ست هانم، أصل أنا باعتبر كل واحد يدخل بيتي كأنه أخويا بالضبط، ولولا كده ما كنتش شفت بنتي اللي شفتيها في الصورة.

وأحست الزوجة أنها أمام كائن من كوكب آخر، يتحدث بلغة غريبة عليها تماما، وسألته باقتضاب:

- مش فاهمة.
- ما هو أنا في الأصل ما كنتش بخلّف، وبعدين الدكتور مجدي الله يستره إداني علاج خلا مراتي تحمل.
- وهو الدكتور مجدي له في علاج العقم، ده تخصصه أنف وأذن.
- وماله يا ست هانم، ما أنا في الأصل مدرس رياضة، ولكن بدرس إنجليـزي زي البريفكس.

ورددت الزوجة دون وعي وقد فاض بها الكيل لهذه المناقشة العجيبة:

- زي البريفكس؟
- أيوه يا ست هانم.

وأخذت الحيرة بالزوجة كل مأخذ، وشعرت برغبة في التقيؤ، ولكنها لم تكن تدري ما هو الشيء الأكثر استحقاقا لتقززها،

... هل سذاجة هذا الكائن الجالس أمامها؟

... أم نذالة الأصدقاء واستغلالهم لهذه السذاجة المفرطة؟

ووجد جعفر أن الوقت قد أصبح ملائما لأن يستأذن للذهاب للحمام، تاركا لزوجة غريمة فرصة هضم هذه الوجبة من القذائف المتتالية.

وعاد ليجد كرسي الزوجة مقلوبا، واستدل من ذلك على عصبيتها وهي تغادر المكان.

وأعاد جعفر الكرسي لوضعه، وجلس عليه وشبك يديه وراء رأسه، ثم راح يصفر لحنا مرحا وقد انتابته حالة من الرضا عن النفس لم يشعر بها من قبل.

******

للمرة الثانية يجلس كمال متحيرا،

... لا حس ولا خبر من الأستاذ جعفر،

وفي هذه المرة لم يكن هناك أي مبرر يتصوره كمال لعدم تنفيذ جعفر ما وعد به.

وأحس أن شيئا في الأمر ليس على ما يرام.

وثار في ذهنه شك قديم فشل أن يمحوه من عقله الباطن طوال هذه المدة ...

شك حول مكالمة جعفر مع زوجته في زيارته السابقة، والتي فتحت باب شك زوجتـه في علاقتهما معا،

لقد تعلل بحاجته لرقم المكتب، وأنه دونه خطأ، وقد يكون هذا التعليل مقنعا، ولكـن سـبب المكالمة غير مقنع بالمرة،

... فما هو الاحتياج لطلب المساعدة في بيع الذهب وقد انتهى اليوم؟

... ترى هل كان يقصد جعفر بذر شك زوجته حول شخصيته فتعمد أن يتحدث بطريقـة شاذة استنكرتها زوجته؟

... أم أن تصرفه كان بعفويته المعتادة؟

ولم يكن كمال في وضع يستطيع معه العودة للفيوم لاستجلاء حقيقة هذا الرجل الـذي بـدأ يشك في كونه بالسذاجة التي اعتادوا أن يعرفوها عنه.

لم يكن أمامه إلا الانتظار كقطة على سطح صفيح ساخن.

......

وترجمت الزوجة ما بدأ يظهر من قلق على زوجها هذه المرة بأن له علاقة بعلاج الفتـاة الصغيرة، فلعله قد أدخلها المستشفى وتحضر الآن للعملية الجسيمة.

وتغلبت عليها عاطفة الأمومة حتى استجابت لفضولها وطلبت رقم جعفر في الفيوم، لعلهـا تحصل على خبر عن البنت من أحد أقربائه.

وجاءها صوت لرجل ينم عن التقدم في العمر:

- ألو
- لو سمحت، ده منزل الأستاذ جعفر؟
- أيوه يا بنتي، بس هو في مصر.

- عارفة، أنا باسأل عن أخبار بنته.
- بخير، بس هي لسه في المدرسة دلوقتي.

وصمتت مأخوذة بهذه العبارة، فليس من المحتمل أن تكون قد أجرت العملية وعادت للمدرسة بهذه السرعة، فسألت باستغراب:

- إزاي في المدرسة دلوقتي؟
- ما أصلها بتروح مرحلة ثانية، يمكن لو طلبتيها بعد ساعتين أو تلاتة تعرفـي تكلميها لو حبيتي.
- طب هي رجعت من مصر إمتى؟
- هي ما راحتش مصر، الأستاذ جعفر هو اللي راح بس.
- لوحده؟
- أيوه طبعا، معقول هيخرج بنته من المدرسة عشان ياخدها معاه؟

وتساءلت الزوجة، ترى هل يتحدث الرجل عن فتاة أخرى لجعفر؟ وسألت:

- هو الأستاذ جعفر عنده كام بنت؟

وتغيرت لهجة الرجل فشابها شيء من الغضب:

- بنت واحدة، هو انتي مين وبتسألي ليه؟

وعرفت أنها قد أثارت شكوكه، كما أثار جعفر بكذبه عليها شكوكها،

ترى ما الذي يدبره ذلك الملعون؟

ووجدت أنها أمام لغز لا تعرف أبعاده، فقررت أن تعـالج الموضـوع بحكمـة ، وقالـت لمحدثها لكي تزيل شكوكه:

- أنا آسفة يا حاج، أنا الحقيقة لسة عارفة بخبر وفاة المرحومة، وكنت عـايزة أطمئن على بنت المرحومة بعد وفاة أمها.

وعاد الصوت مشوبا بالشجن

- ما هو أنا أبو المرحومة، وبنيجي هنا في حالة غياب الأستاذ جعفر عشان نقعد معا بنت المرحومة أنا وستّها.
- البقية في حياتك، وربنا يصبرك، الحقيقة كانت وفاتها مفاجأة لي.
- ولنا كلنا، ولكن دي إرادة ربنا إنها تتخطف من بينا خطف.

إذن كان حدث وفاة الزوجة خاطفا، وازداد اللغز تعقيدا،

وأرادت الزيادة في الإيضاح، فسألت في براءة:

- اتخطفت ازاي يا حاج، ده إحنا لما زرناهم من كذا شهر ما كانش باين عليها حاجة أبدا.
- والله يا بنتي ما حد عارف حاجة، طول عمرها زي الوردة المفتحة، عمرهـا ما اشتكت ولا أخدت حتى حباية اسبرين، ومرة واحدة شفناها بتدبل قدام عنينا واحـدة واحدة، وجعفر الله يستره داخ بها على الحكمه، ولكن من غير أي فايدة، لغايـة مـا شكينا في أن المسألة عايزة علاج روحاني، وكنا ناوين على كـدة بـس إرادة ربنـا سبقتنا.
- وطول مرضها ده يا حاج؟
- هم شهرين أو أقل والله يا ست هانم، وكان السر الإلهي طلع.
- ما فيش إلا الصبر يا حاج، وانت باين عليك راجـل مـؤمن، الله يـصبرك ويصبر الحاجة معاك.
- تشكري يا بنتي.

وبعد أن وضعت الزوجة السماعة، خلت بنفسها تحاول أن تجمع أشتات هذا اللغز العويص.

... مرض مخ البنت أكذوبة،

... ومرض قلب الزوجة أكذوبة،

... ووفاتها أثناء عملية أكذوبة،

وبات لديها واضحا أن الزوجة تعرضت لجريمة قتل حيكت بدهاء خارق،

... جريمة انتقام للشرف بلا شك.

كما انقشعت عن ذهنها صورة الرجل العبيط المفرط في السذاجة، لتحل محلها صورة حمـل وديع يتحول فجأة إلى ذئب شرس عزم على أن يأخذ بثأره من الذئاب التي نهشت شرفه، وقد دبر خطته بكل إحكام.

ولم تكن تعلم كيف تكون ضربته التالية

ولم يعد أمامها ما تفعله إلا أن تنتظر الأحداث.

*****

لم يكن الموضوع بطبيعة الحال ليشغل الدكتور مجدي كما يشغل ذهن كمال أو زوجته،

... إلى أن جاء دوره في تنفيذ خطة الزوج المنتقم لشرفه.

في ذلك اليوم كان عائدا من عيادته كعادته في وقت متأخر من المساء،

وكان مساء ككل مساء، عدا أن البواب لم يكن على دكته، وبالتالي لم يهب لاستقباله وحمل الحقيبة عنه وفتح باب المصعد له، كما هي العادة منذ سكن الدكتور مجدي بهذه العمارة.

وكان الشارع في هذا الوقت بالصدفة خاليا من المارة أو من السيارات، عدا دراجة بخارية كانت تقف في الناحية الأخرى من الشارع.

لم يكن مجدي قد لاحظ تلك الدراجة التي كانت تقف في نفس المكان لعدة أيام سابقة. ولـم يكن يدري أن صاحبها ينتظر بصبر الفرصة السانحة، كما يكمن الصياد لفريسته.

كما لم يلحظ أنها في هذا اليوم بالذات تحركت في نفس الوقت الذي كان يغادر فيه سيارته. وبينما هو يغلق باب السيارة ويتأكد من ذلك خشية لصوص السيارات الـذين ينـشطون فـي الأحياء الهادئة، كانت الدراجة تستدير لتأخذ اتجاه منزله،

... وفي الحي الهادئ دوى صوت طلق ناري.

وانطلقت الدراجة في طريقها تسابق الريح، بينما سقط مجدي أمام عجلات سيارته، ليصبح المجني عليه في جريمة قتل غامضة، راح ضحيتها طبيب شهير لم يعرف عنه إلا حب الناس له، ولذلك فقد قيدت - بعد طول عناء من المباحث - ضد مجهول.

......

وبعد عشر دقائق من جريمة مقتل الدكتور مجدي الغامضة، رن جرس الهاتف عند الأستاذ كمال الذي كان قد داف لتوه للفراش.

وبعض المحامين - مثلهم في ذلك مثل بعض الأطباء - متعودون على مثل هذه المكالمات المتأخرة من الليل، وكمال من هؤلاء المحامين.

واعتقد كمال أن طالب المكالمة – ذكرا كان أو أنثى – من زبائنه الذين يوقعون أنفـسهم في ظروف تدفع بهم لأقسام الشرطة في هذا الوقت المتأخر من الليل.

ولكن الطالب هذه المرة لم يكن واحدا من هؤلاء الزبائن الذين يتوقع منهم أتعابا مـضاعفة مقابل هذه الخدمات الليلية،

بل كان صديقا سابقا، متطوعا بأن ينقل له خبرا عن صديق لهما معا.

- ألو، أستاذ كمال؟
- نعم.
- البقية في حياتك!

واقشعر بدن كمال، وسأل بقلق:

- في مين؟
- في صاحبك الدكتور مجدي، لسة واخد طلقة في راسه من عشر دقائق.

ودارت الأرض بكمال، ولم يستطع أن يميز الصوت الذي يحدثه، فقال:

- انت مين، وعرفت ازاي بالحادثة؟

وبدلا من أن يجيب الطالب على السؤال، قال بلهجة تحمل تشف واضح:

- عشان يحرم يعالج العقم وهو أنف وأذن !!

ووضع الطالب السماعة.

......

شعر كمال أنه يسقط في هاوية لا قرار لها بعد أن عرف من يكون طالب المكالمة.

لقد تأكدت شكوكه في أن تصرفات صديقه القديم لم تكن عفوية،

... إن النزهي الساذج قد توفي ولم يعد له وجود كما قال له جعفر في أول لقاء بينهما،

... وحل محله زوج مخدوع يطلب الثأر لجريمة ارتكبت في حقه من عشر سنوات!

لقد أجهز الزوج المخدوع على الزوجة الخائنة، ثم ألحق بها مجدي،

... ولكنه لن يفعل نفس الشيء معه،

ليس رحمة به بطبيعة الحال،

... بل ليذيقه انتقاما أشد قسوة من الموت!

......

بعد أن غاب الزوج أكثر من اللازم، قامت زوجة كمال من فراشها تستطلع أمر هذه المكالمة التي طالت عن الحد، ولكنها لم تسمع صوتا وهي تقترب من غرفة مكتب زوجها، فزاد قلقها،

ثم زاد أكثر وأكثر وهي تجد زوجها جالسا على الأريكة، واضعا رأسه بين يديه.

ورفع كمال رأسه حين دخلت عليه زوجته، وسألته هي في قلق بالغ:

- فيه إيه يا كمال؟

- مجدي، الدكتور مجدي.

- ماله؟

- أنقتل من نص ساعة.

ووجمت الزوجة لسماع الخبر.

للمرة الثانية ينفذ النزهي جريمته بكل دهاء، أو "زي اليريفكس" على حد تعبيره، لينتقم من الضلع الثالث من مثلث جريمة الخيانة.

ولم تستطع الزوجة إخفاء شماتتها، فقالت بعد فترة صمت طويلة، في سخرية لا تتناسب مع الموقف:

- عشان يحرم يعالج العقم وهو أنف وأذن!!

وكان سماع كمال لنفس العبارة من زوجته كصدمة كهربية توشك أن تصعقه، فسأل ببلاهة:

- انتي سمعتي المكالمة؟

- أسمعها ازاي سلامة عقلك؟ هو احنا عندنا تليفون تاني غير ده؟

وقال كمال متلعثما:

- أصله قال لي نفس العبارة من شويه!

- النزهي؟

وكان هذا أكثر مما يطيق عقل كمال، فسـأل وكل عضلة في جسده ترتعش:

- النزهي؟ وانتي إيش عرفك إنه النزهي؟

فاكتفت بإجابته بابتسامة تحمل المرارة والتشفي والاحتقار، كل ذلك في آن واحد.

وفهم كمال من ابتسامة زوجته ما لم تنطق به بلسانها،

إنها عالمة بالقصة كلها، وتحمل له وازميله في الجريمة كل احتقار.

وساد الصمت بين الزوجين مدة طويلة،

... فكمال أضعف من أن يواصل الحديث وقد انقلبت الدنيا حوله رأسا على عقب، خاصـة حين عرف أن زوجته اكتشفت جريمته الدنيئة بكل تفاصيلها.

... والزوجة لا تجد في نفسها حماسا لكي تتحدث مع هذا الرجل الذي سقط مـن عينيهـا سقطة لا أمل في علاجها.

وقطعت الزوجة الصمت قائلة:

- والله العظيم لولا الولدين اللي ما لهومش ذنب يتصدموا في أبوهم، مـا كنـت قعدت معاك يوم واحد.

ولم يجد كمال ما يرد به.

وقبل أن تغادر الزوجة الغرفة قالت لزوجها:

- على فكرة، انت لك مطلق الحرية تدور على ميت نزهـي تخمـه، أو ميـت واحدة زي مراته تهنكر معاها، لأنك من النهاردة محرم عليه.

وقبل أن تغلق الباب وراءها، رد كمال محتجا في استعطاف:

- كل الشباب بيغلطوا قبل الزواج، وهوا يعني خواتك الصبيان كانوا ملايكة؟

- اخواتي مش ملايكة، ولكن لو عرفت إن واحد منهم استغل منزل صديق لـه بهذه النذالة، أنا أتبرى منه ليوم الدين.

وأغلقت الباب وراءها بكل عنف، وصعدت لغرفتها غير آسفة أن تكون شـريكة الـزوج المخدوع في الانتقام من زوجها النذل.

وكان كمال مستعدا أن يدفع نصف الباقي من عمره ليعرف كيف عرفت زوجته بالأمر.

******

www.kotobarabia.com

تحول كمال رستم المحامي الشهير إلى رجل بلا روح، ومرت السنوات وهو يعيش نهـشا لذكريات الماضي التعيسة.

تعاسة اشتراها بنفسه لنفسه في مقابل لحظات اللذة المحرمة التي اقتنصها، لينطبـق عليـه قول الشاعر:

ألا من يشتري سهرا بنوم سعيد من يبيت قرير عين

جعفر والبنت اختفيا، وراحت كل محاولاته بتكليف من يبحث عنهما عبثا.

كما لم يتجرأ مجرد محاولة استرضاء زوجته التي هجرته، وظلت تشاركه غرفة نوم لا يدري أحد أن فراشها محرم عليه.

ولم يكن أمامه إلا أن يتجرع كأس انتقام غريمه حتى الثمالة.

وهل هناك أقسى من زوج يعيش مع زوجة تنظر إليه كحشرة تتقزز من مجرد النظر إليها، أو أب لا يدري مصير ابنته بعد أن تعلق قلبه بها.

نعم، ترى ما مصير الفتاة؟

سؤال يحرم عليه النوم،

... فإن نام، امتلأ نومه بالكوابيس.

ولم يكن يستبعد أن يتخلص جعفر من الفتاة بعد أن انتهى غرضه منها، فلـيس هنـاك أي مبرر أن ينفق على من يعلم أنها ليست من صلبه.

احتمال غير مستبعد بالمرة، فقد أخبرته خبرته عن المجرمين أن القتل لأول مـرة يحيـل الشخص حيوانا لا يقيم للحياة البشرية أي وزن، ولذلك ليس له أن يعتمد على ضمير جعفر في أن يرحم الطفلة البريئة، بعد أن أمات هو ومجدي هذا الضمير.

ومرت السنوات به بطيئة، وكأن طول حياته مقصود به من الله إطالة عذابـه فـي هـذه المحنة،

......

حتى كان يوم وقع نظره فيه على صورة منشورة في الجريدة التي تعود أن يطالعهـا كـل صباح لفتاة حسناء ممتلئة بنضارة الشباب، تبتسم ابتسامة منغرسة في قلبه منـذ أكثـر مـن خمسة عشر عاما، تشوي قلبه وتحرق أعصابه،

وتحت الصورة عبارة تهنئة تقول:

<u>الحاج جعفر الفيومي صاحب مطبعة ومكتبة "الإسراء" بسوهاج يهنئ كريمته سمارة الفيومي بدرجة الماجستير في الرياضيات من جامعة أسيوط .</u>

وشعر والدموع تنهمر ساخنة على خديه بأنه هو المقصود بالـذات مـن نـشر الـصورة والتهنئة،

إنها رسالة من غريمه تقول له:

- "لقد بذرت أنت البذرة، بينما فزت أنا بالثمرة".

وهل يوجد في الدنيا بأسرها أحلى من هذه ثمرة؟!

......

وفي غرفة المعيشة بمنزل كمال، دهش ولداه لرؤية أمهما تبتسم ابتسامة عريضة وهي تقرأ الجريدة، فسألها أحد أبنائها:

- في إيه يا ماما؟ ما تضحكينا معاكي.

- باضحك على ضربة البريفكس، والله برافو عليه، عرف يربي صحيح.

وضحك الولدان، وقال الآخر:

- بريفكس، إيه البريفكس ده؟

وقدمت لهما الأم الجريدة، وقالت:

- عقبالكم يا ولاد لما تفرحوني زي الحلوة دي ما مفرحة أبوها.

وتأمل كل واحد منهما الصورة بدوره، ثم سألها أحدهما:

- وانتي تعرفيهم يا ماما؟

- أيوه، التقينا بيهم أنا وأبوكم مرة لما كانت البنت عندها تسع سنين.

- بس ده اسمه جعفر الفيومي، إيه بقى حكاية البريفكس دي.

قالت وهي تبتسم:

- كان راجل غريب، غاوي يدي نفسه ألقاب، مرة النزهي ومرة البريفكس، والله أعلم إيه تاني.

وأغرق الثلاثة في الضحك.

تمت